قمة الدنيا

إلهامك الروحي قد يرفعك لحظات اليها

فلسوف تقاسي آلاماً وتمل كروباً عقلية. ستشعر بأنك منكور من كل انسان. ستتقلق. سيخيل اليك انه لم يبق لك من شيء في هذه الحياة. ولكن كل هذا الحزن سوف يمحي. ستعطى أكثر مما أملت أو تصورت. ستكون رجلا عظيما، في يديك قوة، ويحف بك الغنى والشرف. لا تخف. هذا ما سطر!

ألم تشعر يوماً بأنك تتوقع حدوث شيء لا تعلم ما هو ولا ما هي علاقتك به؟ ألم تفعل شيئاً عجباً ولا تعلم لماذا فعلته، فرد عنك عادية أو وجهك توجيهاً ترضاه؟ نعم قد اتفق مثل ذلك للكثيرين منا، واتفق أكثر منه لتقلائل من الذين أحاطت بهم ظروف بلغت من اليأس حد التسليم بالقدر المقدور. ولا شك عندي في أن لتلك الهزة التي قال بها بعض المتصوفين وسموها حالة الكشف، حقيقة ترجع اليها في الطبيعة الانسانية. وليست هي من الأشياء التي يحيطها العلم بطرقه المعروفة، وهي طرق تعتمد أول شيء على الحواس، وإنما هي أشياء ترجع إلى ما سماه الفلاسفة «عالم المجهول». فالعلم لم يصل إلى كل شيء، ولا يدعي القدرة على الوصول إلى كل شيء. ولكن «عالم المجهول» درجات تبدأ من حقيقة علمية بسيطة أو قانون كيمياوي أو طبيعي يكون تحت يدنا ويغيب عنا كشفه، إلى الظاهرات الفذة التي لا يعللها العلم ولا يحللها العقل، الا بطريق واحد طريق الاعتراف بالعجز إزاءها

هذه حادثة واقعية نرويها وسنذكر مصدرها وشخصيها، ولا يزالان معنا وفي عصرنا. لنطلب لها تعليلاً ممن يستطيع أن يعللها، على أن لا نرد إلى «المجهول»، الذي هو في الواقع اعتراف بالعجز عن التعليل.

***

كانا في الصحراء. في جوف الصحراء الواسعة المترامية الأطراف. سيد وسيدة، كلاهما تلقى العلم في أرقى الجامعات، وكلاهما يعرف أن الصحراء غول لا صديق له. فقد الماء

خلف الدواب ، ومعهما رجال من الأدلاء والحراس، والعمران قصي بعيد ، والاتجاه في أي منجه من غير علم به ، معناه الموت المحقق في جوف الرمال . وكانا يبحثان عن واحة مجهولة قطعا اليها طريقاً غير مسلوك . نزل بهما الهم وأخذ منهما ومن رجالها القنوط ، وأبيحت الابل وحملت القافلة في ذلك القفر لا يؤنس لها إلا الاعتقاد بأن الارادة السرمدية نافذة فيهم لا محالة : فإما طريق إلى الدنيا ، وإما طريق إلى الآخرة .

حلم السيد حلماً، وهو يعد ممن لم يعكفوا على التصوف يوماً واحداً من أيام حياتهم. حلم بامرأة بيضاء او إنها تلبس البياض ، لم يستطع أن يصفها ، ولكنها تنبأت بما سوف يقع ، وتكلمت ولكن بلغة الرموز . ولكن هذا الحلم قد اتخذ أول الأمر موضع تسلية ومحل سخرية . ولكن السيد أكد أن ما رأى ليس حلماً . لقد كان أكثر من حلم . إنها رؤيا تكاد تكون في يقظة غير تامة ، في صحوة عقل مضطرب من هول الموقف .

وقفت تلك المرأة التي ترامت له إلى جانبه في الصحراء بمقربة من محط الرحال . وكان يرى خيالها على الأرض في ضوء النجوم ، ورأى آثار قدميها في الرمال ، قالت له — « لا تفزع ، سوف تصل .. ... ولكن عليك أن تقتحم ثلاثة حوائط قبل أن تصل . وقبل النهاية ستضطر إلى تغيير طريق سيرك لتتفي بذلك أجساماً ميتة »

في الصباح جلس السيد والسيدة يناقشان في هذه الرؤيا . ولكنهما لم يشكا هذه المرة في حقيقة الامر ، وعللا الحوائط بعقبات سوف تصادفهما ، عقبات انسانية أو طبيعية ، سوف يجتازانها، وعللا الأجسام الميتة بمرقعة تحمل .

في خلال الأسابيع التي تلت تلك الرؤيا ، أحيط بهم ثلاث مرات . أحاط بهم بدو معادون . وسجنوا في الخيام هما ورجالها ، والبدو من حولهم يناقشون في قتلهم ، وطريقة القتل . وظلا على ذلك حتى أدركهم من أنقذهم .

فلما كان آخر يوم في رحلتهم بين الكثبان المتموجة ، اضطروا إلى الدوران حول وادٍ عميق فيه جثث أموات لصقت عضلاتهم الصفر بعظامهم. جثث آدميين ودواب. هذه قافلة قتلها العطش.

رأى السيد بعد ذلك رؤيا ثانية . ففي جوف تلك الصحراء المجرودة العمياء التي لم تخترقها قافلة من قبل ، رأى تلك المرأة في ثوب أبيض مقبلة نحوه من خلال الرمال الواسعة : وقالت له : « خذ السلسلة التي تعلقها في عنقك وتعال معي إلى قة هذا الكثيب . ثم أدفنها هنالك. وفي الصباح ، إذا حضرت لتأخذها ، سوف ترى آثار قدميك وقدمي معاً . وبذلك تعرف أنك لم تكن في حلم » .

فعل السيد كما أمر ، فلما انحدرا من فوق الكثيب قالت له المرأة : « سوف تقاسي آلاماً وتلقى كروباً عقلية . ستشعر بأنك منكور من كل انسان . ستخان . سيخيل اليك إنه لم يبق لك من شيء في هذه الحياة . ولكن كل هذا الحزن ، سوف يمضي . ستعطى أكثر مما أمات أو تصورت . ستكون رجلاً عظيماً ، في يديك قوة ، ويحف بك الغنى والترف . لا تخف . هذا ما سُطِّر ».

فسألها السيد : وما بال السيدة التي معي ؟ ماذا سيحل بها »

وفي اليوم التالي قصَّ السيد على رفيقته كيف أن الصوت الذي كان يخاطبه قد تلعثم وارتبك ، فأصبح أقرب إلى البشرية ، وتفوَّه بكلمات تحتاج توقف وتفكير : هذه معانيها — « لا أعرف شيئاً عنها . إنها ليست من ملتنا . ولا أعرف لماذا ..... ولكنها سوف تنجو في كل الظروف . هذا محقق . سيحيط بها خطر عظيم ، ولكن لا يصيبها شيء . سيحل بها حزن ويأس ، ولكنها ستنجو دائماً . ليس في يدها دفع شيء . ليس ذلك في طوق إرادتها. ستسلك طرقاً عجيبة ، قد تؤدي إلى الموت — ولكن ليس من نصيبها أن تموت في ذلك . هذا ما كُتب . سوف تنجو ».

عند ما ظهر الفجر الكاذب خيطاً أبيض الاهداب باهت اللون فوق الأفق ، مبشراً باقتراب الشمس من البزوغ عن رمال الصحراء الشرقية ، اصطحب السيد رفيقته ، وأراها آثار أقدامه ذاهبة إلى أعلا الكثيب ، ثم هابطة منه ، وإلى جانبها آثار ظاهرة جلية متجانفة للخطو . كانت آثار قدمين عاريتين ، ضغطتا على الرمل ضغطاً خفيفاً ليناً ، والنسمات من ورائها تسفي عليها الرمال الناعمة.

نظرا إلى هذه الآثار في صمت عميق . وفي صمت أبلغ احتفرا السلسلة من حيث قال السيد . أما آثار القدمين العاريتين فانحدرت نحو الصحراء العريضة الغبية الاسرار . هنالك كانا على بُعد بضعة مئات من الأميال عن كل مكان مأهول.

***

أما السيد فهو أحمد محمد حسنين باشا . وأما السيدة فالمؤلفة الجوالة روزيتا فورس . وأما الرواية فهي كتابها Gypsy of the Sun — في الصفحات ٤٥ و٤٦ و ٤٧ طبعة لندن

***

ألا يحق لنا أن نعتقد ان الالهام الروحي قد يرغم الانسان لحظات يكون فيها فوق قمة الدنيا فيرى العالم المجهول ، من غير أن يدرك كيف رآه ؟